

أزمات الشعوب النفسية

سمينا عصرنا هذا بأساء كثيرة تنطبق عليه .
سميناه عصر النور لأنه العصر الذى انتشرت فيه العلوم
التجريبية ، وسميناه عصر الكهرباء لأنه عصر القوة
الكهربائية ، وسميناه عصر الطيران ، وعصر المرأة وعصر
الدهماء ، ونسميه اليوم عصر الذرة وعصر الرادار ولا نتعدى
الواقع فى هذه التسمية .

ولكننا إذا سميناه عصر « النفسيات » لم نخطئ لذلك سبباً
كأقوى ما تكون أسباب الأساء . لأن البحث فى « علم
النفس » لم ينتشر فى عصر من العصور كما انتشر فى هذا العصر
الحديث .

طبقتنا علم النفس على الفرد فى جميع حالاته : على الفرد
الصحيح وعلى الفرد المريض : على الفرد العظيم وعلى الفرد
الحقير ؛ على الفرد وهو طفل ؛ وعلى الفرد وهو رجل ، وعلى
الفرد فى جميع المعارض والأعمال .

ثم طبقنا علم النفس على الجماعات ، من أمم وطوائف
وطبقات ، وتوسعنا فى بيان الفروق بين النفس الجماعية والنفس

الفردية . فاتفقت الأقوال على أن الظواهر النفسية تختلف بين الفرد والجماعة ، أو تختلف بين الفرد على حدة والفرد في الجمهور والزحام .

لكننا نريد أن نلمس في هذا الحديث جوانب الشبه بين الفرد والجماعة في حالة واحدة ، هي حالة الأزمات النفسية . فإن التقريب والتبسيط في هذه الأمور يفيدان فائدتهما الكبرى ، ويدنوان بنا من حصر العلة وتوحيد ملاحظتها ، وكلما نجحنا في توحيد الأسباب نجحنا في الوصول إلى السبب الصحيح . هناك ظواهر كثيرة تتشابه فيها « الأزمات النفسية » بين الفرد والجماعة كل التشابه ، ونستطيع أن نفهمها هنا وهناك على نحو واحد ، ونلم في هذا الحديث ببعض الأمثلة على تلك المشابهات .

من تلك الظواهر أن « الأزمات النفسية » ترجع في الجماعة ، كما ترجع في الفرد ، إلى الحيرة ، ولا ترجع إلى سوء الحال وحده .

فمهما اشتد سوء الحال فهو لا يفضى بالجماعات ولا بالأفراد إلى أزمة نفسية ، ما لم تصحبه حيرة تمتنع فيها سبيل الهداية . هناك مثلا رجل فقير ، جائع ، عار ، محروم ، ولكنه قانع صابر ، أو شاعر بأنه مستحق للفاقة والحرمان ، فلا أزمة هناك . متى تبدأ الأزمة النفسية ؟

تبدأ حين يحار بين الصبر والقناعة ، وبين طلب الرزق من طريق لا يستقر عليه : من طريق السرقة أو المخاطرة أو التفريط في الشرف والكرامة أو الخروج على المألوف والعادة .

فتوجد الأزمة النفسية مع الحيرة ، ولا يكفى لإيجادها مجرد سوء الحال ، ولهذا يثور رجل يكسب عشرين قرشا في اليوم ولا يثور رجل يكسب عشرة قروش . لأن الفرق بينهما فرق في الحيرة وليس في العسر أو الحرمان .

أو لهذا يشعر الناس في الجيل الحاضر بالأزمات النفسية ، ولم يشعر الناس قبل جيل أو جيلين بأمثال هذه الأزمات لأنهم يضيقون اليوم ويحارون وكانوا بالأمس يضيقون ويصبرون . كذلك الأمم في أزماتها النفسية : تشعر بالأزمة حين ترتاب وتحار ، وليس من الضروري أن تشعر بها حين تشتد بها الحال ، أو تضيق بها أسباب المعاش .

تشعر الأمم بالأزمات النفسية حين تتردد بين نظام ونظام ، وبين خطة وخطة ، وبين عقيدة وعقيدة ، ولا تشعر بالأزمات النفسية وهي ترى أمامها طريقا واحدا لا تعدوه .

تشعر بالأزمات النفسية حين تتردد بين الديمقراطية والسلطة الفردية ، أو بين الحرية والدكتاتورية ، أو بين زعامة العلية وزعامة الدهماء .

ولكنها لا تشعر بالأزمات النفسية إذا استطاعت أن تختار طريقها أو عرفت كيف تختاره ، ولو تفرقت بها الطرق أحزاباً أحزاباً أو جماعات جماعات .

هذه ظاهرة لا تختلف فيها أزمات الفرد وأزمات الجماعة وهي ظاهرة « الحيرة » في الحالتين .

وظاهرة أخرى أن الأزمة النفسية تتراخى في الفرد والجماعة بالتعبير وإزالة الأسباب .

فالرجل الذى يشكو ، ويعلم ما يشكوه ، ويستطيع أن يعبر عن شكواه ، لا يقال إنه فى أزمة نفسية .

والأمة التى تملك حرية التعبير تعالج الأزمات النفسية بالتفريج والتنفيس .

ولكن التعبير فى الحالتين علاج مخفف موقوت ، ولا يحسم الداء كل الحسم إلا العلاج الصحيح ، وهو العلاج الذى يقتلع الأسباب من جذورها ويغنى الأمة عن طلب التفريج والتنفيس . ومن المشابهات بين أزمات الفرد وأزمات الجماعة أن الظواهر النفسية فيها - كثيراً ما تنبعث من أسباب جسدية مجهولة أو معلومة .

فالرجل يشكو من كسل الكبد مثلاً فيسوء ظنه بالحياة ويسوء ظنه بالصدقة والأصدقاء .

والأمة تشكو من سوء التغذية فتقبل على الخمر وتتبع

الطريق العوجاء في الشهوات والنزوات ، وتشيع فيها فلسفة القعود والخمول ، ويصدف فيها الناس عن عظام الهم ومغامرات المجد والطموح .

ومن المشابهات بين أزمات الفرد والجماعة أن نتائجها لا تناسب أسبابها في جميع الحالات .

فهذا الإنسان الفرد تصيبه إهانة فتدفعه إلى الإجرام ، وقد تصيب هذه الإهانة إنسانا غيره ، فتدفع به إلى صومعة العبادة . وهذه الأمة تنهزم في الحرب فتقبل على التجنيد وتضاعف عدتها من السلاح ، وقد تنهزم أمة أخرى فتكثر فيها الطرق الدينية والدعوات الروحية ، أو تروج فيها الآداب المنكوسة والفنون المريضة وما يقترن بهذه وتلك من مساوئ الأخلاق . وقد تنهزم أمة فتثور على حكومتها طلباً للإصلاح ، وتنهزم أمة أخرى فتتكسر نفوسها وتخلد إلى السكينة وتقبل الظلم الذي كانت تثور عليه .

ويتشابه الفرد والجماعة في علاج الأزمات بالطب الصحيح أو علاجها بالسحر والشعوذة والرقى والتعاويذ .

فهذا الرجل تضيق نفسه فيوقد شمعة على ضريح ، ويعتري رجلا آخر مثل هذا الضيق فيذهب إلى معمل الكيمياء لتحليل

ما يحتاج إلى التحليل من إفرازات جسمه ، وهتدى بذلك إلى ذوى الاختصاص من الأطباء .

وكذلك الأمم في شعورها بالضيق وفي طلبها للعلاج : هذه أمة تلوذ بالدجالين الذين يضلونها باسم الدين أو باسم السياسة أو باسم البر والإحسان ، وهذه أمة تلوذ بالمختصين في تحليل الأدوية الاجتماعية ، ومنها ما يرجع إلى المرض أو يرجع إلى الجهل أو يرجع إلى اختلال الوسائل المعيشية وتنظيم الأعمال والثروات ، وكان من شئون الأطباء الاجتماعيين الذين يعرفون ما يجهله المشعوذون والدجالون .

* * *

هذه مشابهاة متعددة بين الفرد والجماعة في الأزمات النفسية ، وأهمها فيما رأينا أننا نضع أيدينا على علة الأزمات في الإنسان الواحد وفي الجماعات البشرية ، وهى الحيرة وصعوبة الاتجاه في طريق دون طريق .

هذا هو أهم شبه بين الأزمة النفسية في الفرد والأزمة النفسية في الجماعة . وإنما كان المهم فيه أنه يهديننا إلى التماس العلاج من طريقه القويم .

فإذا كانت الحيرة هى علة الأزمة النفسية ، فاليقين هو علاجها الوحيد ، وما هو اليقين ؟ .. هو الإيمان كيفما كان . من كان فى أزمة نفسية فقد شفى منها حين يخرج من الحيرة

إلى العمل المطلوب ، عن اعتقاد فيه ورجاء فيما ينتهى إليه .
وقد يكون هذا الرجاء صادقاً معقولاً وقد يكون كاذباً غير
معقول . ولكن الأزمة النفسية لا تشفى بغيره كائن ما كان
نصيبه من الحق أو الباطل .

من أين تأتى الأزمة ؟

تأتى من الحيرة .

وما علاج الحيرة ؟

علاجها الذى لا شك فيه هو العلاج الذى يزيل حيرة
النفوس : وهو اليقين ، أو الإيمان .

لكن المسألة ليست من السهولة ، بحيث تغنى فيها معرفة
هذه الحقيقة كل الغناء . لأن معرفة الدواء لا تغنى عن تحضير
عناصر الدواء .

وعناصر الإيمان هى تأثير نفسانى بليغ ، وعقيدة مقبولة
لا تناقض المحسوسات .

فلا تقوم عقيدة بغير شخصية إنسانية قادرة على إيجائها ،
وعاطفة حية تستجيب لدعائها ، ومبادئ روحية أو فكرية
لا تناقض الجليل فيما يعلمه ، وفيما يحسه ويراه .

ولا تقوم عقيدة على بضاعة الإيهام وحده دون العمل النافع
السريع .

وإن قامت هنيهة من الوقت فمصيرها إلى الزوال .

كل أزمة نفسية تعترى الشعوب تأتي من حيرة وتشفى
بإيمان ، وكل إيمان يقوم على الوهم وحده مخفق فيما يدعو إليه .
فلا بد من التوفيق بين الإيمان ومطالب الأوان ، ولو كان الإيمان
مما استقر به اليقين في زمن قديم .